الفصل الأول

مكانة العقل والفكر فى القرآن

- العقل ومجاليه فى القرآن .
- إشادة القرآن بأُولى الألباب .
- التفكر ومجالاته فى القرآن .
- التفكر بعيداً عن تأثير العقل الجَمْعى .
- الدعوة إلى التذكر والاعتبار .
- شهادات المنصفين بعقلانية القرآن .

OBEIKAN.COM

مكانة العقل والفكر فى القرآن

• مادة (ع ق ل) فى القرآن :

جاءت مادة (ع ق ل) فى القرآن الكريم ٤٩ (تسعاً وأربعين مرة) .

كلها - إلا واحدة - جاءت بصيغة الفعل المضارع ، وخصوصاً ما اتصل به واو الجماعة : « تعقلون » ، و« يعقلون » .

ففعل « تعقلون » تكرر ٢٤ مرة ، وفعل « يعقلون » تكرر ٢٢ مرة . وفعل « عَقَل » ، و « نعقل » و« يعقل » جاء كل منها مرة واحدة .

* *

• صيغة « أفلا تعقلون » ؟ :

ومن أبرز ما جاء هنا : صيغة الاستفهام الإنكارى الدالة على التحريض والإلهاب ، تلك الصيغة المنكِرة الملهبة المحرِّضة ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ ؟! وقد ذكرت فى القرآن ثلاث عشرة مرة .

منها : قوله فى خطاب بنى إسرائيل وتقريعهم : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ، أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

فإن عمل الإنسان بضد ما يعلم ، وضد ما يأمر به غيره ، لا يصدر عن إنسان سَوِّى فى عقله ، ناضج فى فكره ، إنما هو ضرب من الجنون !

ومنها : قوله فى محاجة أهل الكتاب فى شأن إبراهيم ، ومحاولة ضمه إليهم بوصفه يهودياً أو نصرانياً ! : ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

فكيف يُنسب السابق إلى اللاحق ، والمتقدم إلى المتأخر ؟ إلا عند مَن فقد عقله !!

---

(١) البقرة : ٤٤ (٢) آل عمران : ٦٥

OBEIKAN.COM

ومنها : قوله تعالى : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفلا تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

وجاء مثلها بعد الحديث عن بنى إسرائيل الذين باعوا المُثُلُ العليا بالعَرَض الأدنى . قال : ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لا يَقُولُواْ عَلَى اللهِ إلا الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ، وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

ومثلها : ﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْاْ ، أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

فالموازنة بين دار الدنيا والدار الآخرة ، ترجح كفة الآخرة ، فإنها متاع قليل وزائل ، وفى الصحيح : « ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم ، فلينظر بماذا يرجع » ؟ (٤) .

فكيف يُتصور أن ترجح كفة الدنيا على الآخرة ، إلا عند مَن لا يعقلون ؟!!

ومنها : قوله تعالى لرسوله : ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ ، أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (٥) .

فقد أمره الله أن يُبيِّن لهم أنه مبعوث بهذا القرآن بمشيئة الله لا بمشيئته هو ، فقد لبث فيهم أربعين سنة من قبل ، ما ادَّعى فيها أنه تكلم عن الله ، ولا أن وحياً ينزل عليه ، فكيف يُعقل أن يكذب الصدوق بعد أربعين سنة ؟ وأن تتعثر سيرة المستقيم فجأة ، فينحرف ويفجر ، بلا سبب ولا مبرر ، وهو بين أظهرهم يعرفون مدخله ومخرجه ، وجلوته وخلوته !

ومنها : قوله : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ ، أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (٦) .

فهو يمن على العرب بالقرآن الذى نزل بلسانهم ، وفيه ذكرهم وشرفهم –

---

(١) الأنعام : ٣٢ (٢) الأعراف : ١٦٩ (٣) يوسف : ١٠٩

(٤) رواه مسلم . (٥) يونس : ١٦ (٦) الأنبياء : ١٠

أو فيه تذكيرهم بربهم ورسالتهم ومصيرهم - أفلا يعقلون ويدركون قيمة هذه **النعمة** العظمى ؟

ومنها قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُحْيِ وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

وفى الآية لفت إلى عمل الله تعالى فى الكون ، وأبرزه الإحياء والإماتة ، والمخالفة بين اللّيل والنهار ، فهذه من آيات الله الدالة على عموم قدرته ، وشمول مشيئته ، وبالغ حكمته ، لمن كان لديه عقل يعى ، ويتدبر ، أفلا تعقلون بعد ذلك أيها المكابرون والجاحدون ؟!

ومنها : قوله تعالى بعد حديث عن قوم لوط ، وكيف دمَّر الله عليهم قريتهم ، وجعل عاليها سافلها ، ثم قال : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

وجاءت هذه الصيغة : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ مرة على لسان هود ، وأُخرى على لسان إبراهيم عليهما السلام .

فهود يقول : ﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ، إنْ أَجْرِىَ إلا عَلَى الَّذِى فَطَرَنِى ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٣) . يعنى أن الذى لا يطلب على دعوته أجراً ، ولا يبغى جزاءً لا يكون متهماً لدى مَن يعقلون .

وإبراهيم يقول لقومه - حين سألوه عمن حطم أصنامهم - ساخراً منهم : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْئَلُوهُمْ إن كَانُواْ يَنطِقُونَ * فَرَجَعُواْ إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُواْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ من دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) المؤمنون : ٨٠

(٢) الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨

(٣) هود : ٥١

(٤) الأنبياء : ٦٣ - ٦٧

OBEIKAN.COM

ومَن عبد من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره من الأحجار القابلة للكسر حتى تكون جذاذاً ، والتى لو سئلت لا تنطق ولا تجيب ، فليس أهلاً أن يكون فى زمرة مَن يعقلون .

وقريب من هذه الصيغة قوله تعالى بعد حديث عن الشيطان والتحذير منه : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً ، أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

وجاءت الصيغة الإنكارية بفعل الغائب لا فعل المخاطَب فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى الْخَلْقِ ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

* *

● كلمة « تعقلون » فى القرآن :

وتكررت هذه الكلمة ﴿ تَعْقِلُونَ ﴾ مرات فى القرآن مرتبطة بـ « الآيات » التى بيَّنها الله تعالى ووجوب تعقلها ، سواء أكانت آيات منزَّلة مسطورة أم آيات مخلوقة منظورة . ويبدو من السياق فى معظمها أن المقصود بها الآيات المنزَّلة من الله تعالى ، كما فى قوله سبحانه :

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ ، إن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٤) .

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٥) .

﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٦) ، وربما كان المقصود منها هنا الآيات الكونية ؛ لأنها جاءت بعد قوله : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ (٧) .

---

(١) يس : ٦٢ (٢) يس : ٦٨ (٣) البقرة : ٢٤٢

(٤) آل عمران : ١١٨ (٥) النور : ٦١ (٦) الحديد : ١٧

(٧) الحديد : ١٧

OBEIKAN.COM

ومثل ذلك قوله تعالى فى الوصايا العشر من سورة الأنعام : ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

فقد أنزل الله القرآن بلسانهم ليعقلوه بأفئدتهم ، لا لمجرد أن يسمعوه بآذانهم ، دون أن يفكروا فيه ويتدبَّروه .

* *

● كلمة « يعقلون » مثبتة ومنفية :

وجاءت هذه المادة بصيغة فعل المضارع للجمع الغائب « يعقلون » اثنتين وعشرين مرة ، المنفية منها « لا يعقلون » ذمٌّ للذين لا يستخدمون عقولهم التى وهبهم الله تعالى ، بل يعطلونها جموداً أو تقليداً أو جحوداً .

اقرأ قوله تعالى فى الرد على المقلِّدين لآبائهم فى شركهم : ﴿ أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٤) .

وقوله فى تصوير غباء هؤلاء : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٥) .

فهم أشبه بالقطيع من الأنعام التى ينعق فيها راعيها ، فلا تسمع منه إلا صوتاً ، ولا تعى حقيقة ما يقول ، فقد عطَّلوا أدوات المعرفة عندهم ، فلا تسمع آذانهم الحق ، ولا تنطق ألسنتهم به ، ولا تراه أعينهم . فهم إذن صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فهم لا يعقلون !

وقال تعالى فى وصف الصادِّين عن الحق من أهل الكتاب : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٦) .

---

(١) الأنعام : ١٥١ (٢) يوسف : ٢ (٣) الزخرف : ٣

(٤) البقرة : ١٧٠ (٥) البقرة : ١٧١ (٦) المائدة : ٥٨

OBEIKAN.COM

لأن الذى يسخر من نداء الصلاة ، الداعى إلى الوقوف بين يدى الله ، ويتخذها هزواً ولعباً ، لا يمكن أن يكون عاقلاً .

وقال تعالى فى بيان أباطيل المشركين وما فعلوه فى تحريم ما أحلَّ الله من الأنعام : ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ ، وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

وقال تعالى فى وصف المشركين الذين انحط بهم الشرك عن درجة الإنسانية لما ألغى من عقولهم ومداركهم : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

وقال سبحانه لرسوله : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ، أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

فهم يستمعون إليه بآذانهم وعقولهم غائبة ، فهم فى حقيقة أمرهم صم .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٤) . فكل الأنفس قابلة للإيمان والاهتداء ، إلا أنفس الذين ألغَوْا عقولهم ، فقد جعل الله عليهم الرجس ، أى النجاسة والقذر ، وهو رجس معنوى ، وعقوبة قدرية ، جزاءً لتعطيل العقول .

وقال عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ ، قُلِ الْحَمْدُ للهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٥) . ومن إنصاف القرآن أنه حكم على الأكثر لا على الكل ، ليدل على أنه قد توجد قِلَّة عندها شىء من العقل ، ولكنها مغمورة وضائعة فى الأكثرية الغبية ، ولهذا قيل : للأكثر حكم الكل .

---

(١) المائدة : ١٠٣ (٢) الأنفال : ٢٢ (٣) يونس : ٤٢

(٤) يونس : ١٠٠ (٥) العنكبوت : ٦٣

وقال تبارك وتعالى يخاطب رسوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

وما ذلك إلا لأنهم لم يتأدبوا بما ينبغى فى مخاطبة صفوة الرُسُل ، وسيد الخلق ، ولم يصبروا قليلاً حتى يخرج إليهم .

وقال سبحانه في وصف اليهود : ﴿ لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ، بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ، تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) ، إذ العقل الواعى يقتضى من أهله أن تجتمع قلوبهم على هدف واحد ، ومنهج واحد ؛ لا أن تجتمع أجسامهم وقلوبهم متفرقة .

وجاءت كلمة « يعقلون » مثبتة ، ولكنها منفية معنى ؛ لأنها جاءت بعد صيغة الاستفهام الإنكارى فى قوله تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ (٣) .

* *

● الآيات الكونية مجال لعمل العقل :

وأما المثبت من هذه الصيغة « يعقلون » فجاء فى مقام التأمل لآيات الله الكونية ، المبثوثة فى عوالم الأفلاك والجماد والنبات والحيوان والإنسان .

نقرأ فى ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) الحجرات : ٤ — (٢) الحشر : ١٤

(٣) الفرقان : ٤٣ ، ٤٤ — (٤) البقرة : ١٦٤

ومثلها قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِه يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مَاءً فَيُحْيِ بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

وقوله سبحانه : ﴿ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ ، إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ، نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِه مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِّلشَّارِبِينَ * وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً ، إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٤) .

وننتقل من الأرض ونباتها وحيوانها إلى السماء بشمسها وقمرها ونجومها ، فنقرأ : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ، إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٥) .

وننتقل من الحاضر بما فيه ، إلى الماضي وإلى التاريخ . .

ونقرأ تعقيباً على قصة قوم لوط : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٦) ، فالعقل مطلوب هنا للاعتبار بالتاريخ وأيام الله فيه .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ

---

(١) الروم : ٢٤ (٢) الجاثية : ٥ (٣) الرعد : ٤
(٤) النحل : ٦٦ ، ٦٧ (٥) النحل : ١٢ (٦) العنكبوت : ٣٥

يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴾ (١) .

فليس المهم أن تسير فى الأرض ، وأن تجوبها من شرقها إلى غربها ، ومن شمالها إلى جنوبها ، وأن تطلع على آثار الأُمم فيها ، إنما المهم أن يكون لك قلب يعقل ويبصر ، وأُذن تسمع وتعى .

وفى مقام آخر نقرأ قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ، هَل لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِى مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) .

وبهذا غطّى « العقل » كل الجوانب : الكون علويه وسفليه ، الإنسان بحاضره وماضيه ، آيات الله الكونية والتنزيلية ، فمن لم يستخدم عقله فى هذه النواحى كلها ، كان خليقاً ألا يهتدى إلى الحق ، وأن يسير فى ركاب أهل الضلال والإضلال ، وأن يقول مع أهل الشقاء فى النار يوم القيامة ما حكاه الله عنهم : ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُواْ بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٣) .

* * *

---

(١) الحج : ٤٦ (٢) الروم : ٢٨ (٣) الملك : ١٠ ، ١١

إشادة القرآن بأُولى الألباب والنُهَى

ومن أروع ما هدى إليه القرآن فى جانب الفكر والعلم : تنويهه بـ « أُولى الألباب » و« أُولى النُهَى » أى أصحاب العقول ، وإشادته بهم فى مواضع شتَّى من سوره المكية والمدنية على سواء .

ولقد ذكر بعض الكاتبين أن القرآن الكريم اهتم بفعل « عقل » وما يُشتق منه مثل قوله : « يعقلون » أو « تعقلون » ، ولكنه لم يذكر « العقل » باعتباره مَلَكة أو جوهراً فى الإنسان تصدر عنه العمليات العقلية المختلفة من التفكر والتذكر والاعتبار ونحوها .

وهذا صحيح إذا نظرنا إلى لفظة « العقل » ، ولكن إذا نظرنا إلى المعنى المقصود بها ، رأينا ذلك فى الكتاب العزيز منصوصاً عليه بوضوح فى هذه الكلمة « الألباب » أى العقول ، وهى : جمع « لُبّ » ، وهو : ما يقابل القشر ، فكأن القرآن يشير هنا إلى أن الإنسان قسمان : قشر ولُبّ ، فالجسم هو : القشر ، والعقل هو : اللُّبّ .

وقد وردت كلمة : ﴿ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ أو ﴿ أُولِى الأَلْبَابِ ﴾ فى القرآن ست عشرة مرة . تسعة منها فى القرآن المكى ، وسبعة فى القرآن المدنى (١) .

من الثمانى المدنية أربع مرات جاءت فى صيغة النداء .

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِى الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢) .

وما ذلك إلّا لأن القِصاص فى ظاهره قتل نفس ، فكيف يكون حياة ؟ هذا ما يعقله أُولو الألباب : أنَّ نفساً تُقتل ليحيا بها مجتمع ، لما فى هذه العقوبة من

---

(١) هذا بناء على ما رجحناه من أن سورة الرعد مكية كما يدل على ذلك سياقها وموضوعها وموضعها بين سور « آلر » وكلها مكية .

(٢) البقرة : ١٧٩

OBEIKAN.COM

ردع للقتلة ، وشفاء لصدور أهل المقتول . يقول الإمام البقاعى : « الألباب : العقول التى تنفع أصحابها بخلوصها مما هو كالقشر . قال الحرالىّ : وهو باطن العقل الذى شأنه أن يلحظ أمر الله فى المشهودات ، كما شأن ظاهر العقل أن يلحظ الحقائق من المخلوقات ، فهم الناظرون إلى ربهم فى آياته » (١) .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ، وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِى الأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

فالزاد المعروف إنما يكون من الطعام والشراب ، فكيف الزاد هو التقوى ، بل هى خير الزاد ؟ هذا ما يعقله أولو الألباب الذين ناداهم هنا ليتقوه .

قال الإمام البقاعى : « ﴿ يَا أُوْلِى الأَلْبَابِ ﴾ : أى العقول الصافية ، والأفهام النيِّرة الخالصة ، التى تجردت عن جميع الخلائق الجسمانية ، فأبصرت جلالة التقوى ، فلزمتها » (٣) .

الثالثة : قوله : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ، فَاتَّقُواْ اللهَ يَا أُوْلِى الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٤) . إن كثيراً من الناس يهتمون بالكم والعدد ، ولا يهتمون بالكيف والنوع ، ولكن أولى الألباب هم الذين يعنيهم الكيف ، ويهمهم الطيب وإن كان قليلاً . لهذا أمرهم الله هنا بالتقوى رجاء الفلاح فى الدنيا والآخرة .

الرابعة : قوله : ﴿ فَاتَّقُواْ اللهَ يَا أُوْلِى الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُواْ ، قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً * رَّسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (٥) .

---

(١) تفسير « نظم الدرر » : ٣/ ٣٢
(٢) البقرة : ١٩٧
(٣) المصدر السابق : ٣/ ١٤٦
(٤) المائدة : ١٠٠
(٥) الطلاق : ١٠ ، ١١

والخطاب لأُولى الألباب هنا ليتبينوا قدر الذكر الذى أنزل الله إليهم ، مجسماً فى رسول يمثل الإيمان الحى بِسُنَّته وسيرته ، ويُخرجهم من الظلمات إلى النور .

والآيات الأربعة الأُخرى نجد منها آية فى سورة البقرة : ﴿ يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ، وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْراً كَثِيراً ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (١) . وهى ترشد إلى أن أحق مَن ينتفع بالحكمة هم أُولو الألباب ، الذين يضعون الأشياء فى مواضعها ، ويعطون كل ذى حق حقه .

وفى سورة آل عمران ذكر أُولو الألباب مرتين :

مرة فى أولها فى مقام الحديث عن الآيات المتشابهات ، فهم لا يهلكون عندها كما يفعل الذين فى قلوبهم زيغ ، ممن يتبعون ما تشابه من القرآن ، بل هم يردون المتشابهات إلى المحكمات التى هنَّ أُم الكتاب ومعظمه ، وهذا من ثمار رسوخهم فى العلم وتمكنهم منه ، فهم كما وصفهم القرآن : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

ومرة أُخرى فى أواخر السورة فى مقام الحديث عن آيات الله فى هذا الكون المنظور ، وما فيها من مجال رحب للتأمل والتفكر ، والانتقال منها إلى أن هذا العالَم لم يُخلق باطلاً ولا عبثاً ، بل خُلق لحكمة عرفها أُولو الألباب : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِى الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٣) .

وأما الآيات المكية فإليك الحديث عنها .

فى ختام سورة يوسف ورد ذكر أُولى الألباب فى مقام استفادتهم من عبر التاريخ ، ومن قصص القرآن ، وما اشتمل عليه من بيان سنن الله فى الناس

---

(١) البقرة : ٢٦٩ (٢) آل عمران : ٧ (٣) آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١

والحياة ، فالجُهَّال والغافلون والأغبياء تمر عليهم هذه الأحداث ، فلا تنبه فيهم غافلاً ، ولا تحرِّك منهم ساكناً ، كما قال تعالى فى أواخر هذه السورة : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (١) ، أما أولو الألباب فهم وحدهم الذين يحسنون قراءة القصص القرآنى ، وقراءة التاريخ ، وبالتالى قراءة الواقع : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِى الأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) .

وفى سورة الرعد ورد ذكر أُولى الألباب فى مقام معرفة ما أنزل الله تعالى إلى رسوله ، وأنه الحق من ربه ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (٣) . وقد وصفت الآيات الكريمة أُولى الألباب بجملة من الفضائل الخُلُقيةَ الرفيعة ، فربطت بين الكمال العقلى والكمال الخُلُقى ، وهو ما نلحظه فى نفى الجنون عن النبى ﷺ ، الذى اتهمه به المشركون ، بقوله تعالى : ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ (٤) ، ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٥) ، وفى ختام أوصاف أُولى الألباب فى هذا السياق قال تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ (٦) .

وفى ختام أوصاف أُولى الألباب وأدعيتهم فى خواتيم سورة آل عمران ، قال تعالى : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ . . . إلى أن قال : ﴿ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّنْ عِندِ اللهِ ، وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ (٧) .

---

(١) يوسف : ١٠٥ (٢) يوسف : ١١١ (٣) الرعد : ١٩
(٤) القلم : ٢ (٥) القلم : ٤ (٦) الرعد : ٢٢ ، ٢٣
(٧) آل عمران : ١٩٥

فهذه الآيات كلها تدلنا على أن أهل الجنَّة هم أُولو الألباب ، أى أصحاب العقول ، وليس أهل الجنَّة ولا أكثرهم (هم البُلْه) كما يُذكر ذلك فى حديث لا يصح ولا يثبت . فهذا دين العقل والعقلاء .

وفى ختام سورة إبراهيم حديث عن القرآن وما تضمنه من بلاغ مبين للناس ، ومن إنذار لهم بهذا القرآن ، ومن إعلام لهم بوحدانيته تعالى فى إلهيته ، وهو ما بُعث به الرُسُل ، ونزلت به الكتب ، وقامت له القيامة ، وانتصبت سوق الجنَّة والنار ، وليذكر فى النهاية - بهذا القرآن العظيم - أُولو الألباب ، الذين هم أولى الناس بتذكر ما فيه واستحضاره واسترجاعه ، فيقول تعالى : ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (١) .

ومثل هذا الحديث عن الكتاب العزيز جاء فى سورة « ص » فى قوله سبحانه : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُواْ آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

فإذا كانت الألباب تسيح متفكرة فى هذا العالَم - عالَم الخلق - ما تبصر منه وما لا تبصر ، فإنها جديرة بأن تسيح متدبرة متذكرة فى هذا القرآن الذى يجسد عالم الأمر ، فكلاهما مشتمل على آيات الله تعالى ، تلك آيات من فعله ، وهذه آيات من قوله . تلك تُعرف بالتعقل والتفكر ، وهذه تُعرف بالتدبر والتذكر ، ولذا جاء فى موضع آخر قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً ﴾ (٣) ، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٤) .

وجاء ذكر أُولى الألباب مرة أُخرى فى هذه السورة « ص » فى مقام

---

(١) ابراهيم : ٥٢
(٢) سورة ص : ٢٩
(٣) النساء : ٨٢
(٤) محمد : ٢٤

الحديث عن عبد الله أيوب وصبره على ما ابتلاه الله به : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ، نِّعْمَ الْعَبْدُ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (١) . وكيف كافأه الله تعالى على صبره ورضاه بقضاء ربه ، وعوَّضه بإعادة أهله – ومثلهم معهم – إليه ، فقال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لأُوْلِى الأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

وفى سورة الزمر جاء ذكر أُولى الألباب مرات ثلاثاً :

مرة فى مقام الحديث عن قُوَّام اللَّيل الذين يصفون أقدامهم لربهم خائفين راجين ، والناس مستغرقون فى نومهم أو فى لياليهم الحمر ، عالمين بأنهم الغانمون الرابحون ، وأن غيرهم هم المغبونون الخاسرون ، وهذا هو العقل حقاً ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (٣) .

والمرة الثانية فى مقام الحديث عن عباد الله من أهل التوحيد الذين اجتنبوا الطاغوت والأوثان أن يعبدوها ، وأنابوا إلى الله وحده ، فبشَّرهم الله تعالى بما هم أهل له من كرامته ومثوبته ، ونسبهم إلى عبوديته تشريفاً لهم وتكريماً ، ووصفهم بأنهم : ﴿ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ (٤) ، فهم لا يقفون عند « الحسن » ، بل يتطلعون أبداً إلى « الأحسن » كما قال تعالى فى أكثر من سورة : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (٥) ، وكما قال : ﴿ وَاتَّبِعُواْ أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ (٦) . وفى هذا قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُواْ الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُواْ إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ، فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ ، وَأُوْلَٰئِكَ هُمْ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (٧) .

---

(١) سورة ص : ٤٤ (٢) سورة ص : ٤٣ (٣) الزمر : ٩
(٤) الزمر : ١٨ (٥) هود : ٧ (٦) الزمر : ٥٥
(٧) الزمر : ١٧ ، ١٨

فوصفهم بثلاث خصال : التوحيد أو اجتناب الطاغوت ، والإنابة إلى الله ، واتباع أحسن القول .

وكافأهم بثلاث مثوبات : البُشْرى من الله ، ووصفهم بالهداية ، بل حصر الهداية فيهم ، كما تدل عليه الصيغة ، وكذلك قصر صفة « أولو الألباب » عليهم .

والمرة الثالثة والأخيرة فى السورة ، جاءت فى مقام الحديث عن الماء الذى أنزله الله من السماء وسلكه ينابيع فى الأرض ، وكيف أخرج الله به زرعاً مختلفاً ألوانه ، انتهى به الأمر إلى أن صار حطاماً ، ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ (١) .

وآخر ما جاء فى الآيات المكية كان فى مقام الحديث عن التوراة ، الكتاب الذى أنزله الله على كليمه موسى نوراً وهدىً للناس فى زمنه ، وكيف جعله الله هدىً وذكرى للعقلاء فى ذلك العصر ، وبهذا ربط القرآن بين كتب الله تعالى جميعاً ورُسُله . وهذا هو مقتضى الإيمان كما جاء به القرآن ، يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ * هُدًى وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

فهذه هى المرات الست عشرة ، التى جاء فيها ذكر أُولى الألباب فى القرآن ، وهى تدل بغاية الوضوح على عقلانية هذا القرآن ، وعقلانية رسالته .

وهذا بالإضافة إلى ما جاء به القرآن عن أصحاب العقول تحت اسم « أُولى النُهَىٰ » ، والنُهَىٰ : جمع « نُهْيَة » وهى اسم للعقل ، سمى بذلك ؛ لأنه ينهى صاحبه عما لا يليق بالإنسان أن يفعله ، كما سمى « عقلاً » لأنه يعقله ويحجزه عما لا ينبغى .

وقد وردت هذه اللَّفظة فى القرآن مرتين ، كلتاهما فى سورة « طه » .

---

(١) الزمر : ٢١

(٢) غافر : ٥٣ ، ٥٤

OBEIKAN.COM

الأولى فى مقام حوار موسى مع فرعون ، ثم استطرد إلى الحديث عن الله سبحانه : ﴿ الَّذى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِه أَزْوَاجاً مِّن نَّبَات شَتَّىٰ * كُلُواْ وَارْعَوْاْ أَنْعَامَكُمْ ، إنَّ فِى ذَلكَ لآيَات لأُوْلِى النُّهَىٰ ﴾ (١) .

فهذا فى مقام الحديث عن آيات الله فى الكون ، وخصوصاً فى عالم النبات والأحياء .

والأُخرى فى مقام الحديث عن القرون الخالية ، وما نزل بهم من بأس الله الذى لا يُرد عن القوم المجرمين ، وكيف يعتبر اللاحقون بما أصاب السابقين من دمار وهلاك . وهذا هو موقف أُولى النُّهَى : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنهِمْ ، إنَّ فِى ذَلكَ لآيَات لأُوْلِى النُّهَىٰ ﴾ (٢) .

وهناك موضع واحد جاء فيه الحديث عن العقل فى القرآن باسم « الحِجْر » والمادة تدل على معنى المنع ، فقيل للعقل : حِجْر ؛ لكون الإنسان فى منع منه مما تدعو إليه نفسه ، كما قال الراغب .

أما هذه المرة ، فقد جاءت فى سورة الفجر ، فى قوله تعالى : ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِى ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ (٣) .

* *

● العقل باسم الفؤاد :

كما جاء الحديث عن العقل فى القرآن باسم « الفؤاد » مفرداً ومجموعاً ، باعتباره وسيلة من وسائل العلم الأساسية الثلاث : السمع والبصر والفؤاد .

يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (٤) .

وقال عزَّ من قائل : ﴿ وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) طه : ٥٣ ، ٥٤ (٢) طه : ١٢٨ (٣) الفجر : ١ – ٥

(٤) الإسراء : ٣٦ (٥) النحل : ٧٨

OBEIKAN.COM

وقد تكرر ذكر السمع والأبصار والأفئدة فى سور شتَّى .

وكثيراً ما يُذكر « القلب » بدل « الفؤاد » فى مواضع عدة من كتاب الله .
كما فى قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ، وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ (٢) .

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَٰئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ (٣) .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٤) .

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ (٥) .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ (٦) .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ ﴾ (٧) .

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٨) .

* * *

---

(١) البقرة : ٧ — (٢) الأنعام : ٤٦ — (٣) الأعراف : ١٧٩
(٤) النحل : ١٠٨ — (٥) الإسراء : ٤٦ — (٦) الكهف : ٥٧
(٧) الحج : ٤٦ — (٨) الجاثية : ٢٣

الدعوة إلى التفكر

ومن الكلمات القرآنية التى لها دلالتها هنا : كلمة « فكر » وما اشتق منها .

فالقرآن - فى عشرات الآيات من سوره المكية والمدنية - دعا إلى التفكر - دعوة قوية ، أى إلى إعمال الفكر ، لا إلى تعطيله وتجميده .

قال الراغب فى « المفردات » : الفكرة قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم ، والتفكر : جولان تلك القوة بحسب نظر العقل ، وذلك للإنسان دون الحيوان ، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة فى القلب ، ولهذا روى : « تفكروا فى آلاء الله ، ولا تفكروا فى الله » [(١)] إذ كان الله منزَّهاً أن يوصف بصورة .

ونقل الراغب عن بعض الأدباء محاولة لبيان الأصل الحسِّى لاستعمال العرب كلمة « الفكر » فقال : « إنها مقلوب عن كلمة « الفرك » ، غير أن الفرك يُستعمل فى المحسَّات ، على حين يُستعمل الفكر فى المعانى والمعقولات ، وهو فرك الأُمور وبحثها ، طلباً للوصول إلى حقيقتها » ! [(٢)] .

● الكون كله مجال للتفكر :

دعا القرآن إلى التفكر بأساليب شتَّى ، وفى كل المجالات ، فيما عدا التفكر فى الله تعالى ، إذ التفكر فى ذاته سبحانه تبديد لطاقة العقل فيما

---

(١) رواه أبو الشيخ والطبرانى فى الأوسط وابن عدى والبيهقى عن ابن عمر بهذا اللَّفظ ، كما رواه أبو نعيم فى « الحلية » عن ابن عباس بلفظ : « تفكروا فى خلق الله ، ولا تفكروا فى الله » ، وحسَّنها الألبانى فى سلسلته « الصحيحة » بمجموع الطرق برقم (١٧٨٨) وفى « صحيح الجامع الصغير » (٢٩٧٥) ، (٢٩٧٦) ومعنى الحديث صحيح بالإجماع .

(٢) انظر : مادة « فكر » فى مفردات ألفاظ القرآن ص ٦٤٣

لا يمكنه إدراكه ، فحسبه أن يفكر فى مخلوقاته فى السموات والأرض وفى نفسه ، يقول سبحانه : ﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِى أَنفُسِهِم ، مَّا خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمّىً ﴾ (١) .

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِى الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٢) .

فتفكر هؤلاء من أُولى الألباب فى خلق السموات والأرض وما فيهما من روعة النظام ، ودقة الإحكام ، هداهم إلى أن الله ما خلقهما إلا لحكمة ، لم يخلقهما لعباً ولا عبثاً ولا باطلاً ، ولهذا قالوا : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ ﴾ (٣) .

بل ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤)

وكذلك ينبغى للعقل أن يتفكر فى آيات الله تعالى فى أرضه وسمائه ، وفى شمسه وبحره ونجومه ، وفيما تشتمل عليه الأرض من حيوان ونبات ، وجبال وأنهار وبحار .

يقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَاراً ، وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) الروم : ٨ (٢) آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١ (٣) آل عمران : ١٩١
(٤) الدخان : ٣٨ ، ٣٩ (٥) الرعد : ٣

﴿ هُوَ الَّذى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فيه تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتفكَّرُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً ، يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفكَّرُونَ ﴾ (٢) .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

فالكون كله ، بما فيه ومَن فيه : مسرح للفكر ، يصول فيه ويجول .

* *

● « التفكر » فى الجوانب المعنوية :

ولا يقف التفكر عند الجوانب المادية ، بل يتجاوزها إلى الجوانب المعنوية ، كما فى العلاقة بين المرء وزوجه ، التى اعتبرها القرآن آية من آيات الله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُواْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفكَّرُونَ ﴾ (٤) .

فمن آيات الله تعالى أن خلق للإنسان من جنسه زوجاً يسكن إليها ، كما تسكن إليه ، كما ربط بينهما بوشائج المودَّة والرحمة ، حتى يصبح أحدهما وكأنه جزء من صاحبه : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ (٥) .

ومن هذه الجوانب : صنع الله فى الأنفس عند النوم ، وعند الموت : ﴿ اللهُ

---

(١) النحل : ١٠ ، ١١ (٢) النحل : ٦٨ ، ٦٩ (٣) الجاثية : ١٣
(٤) الروم : ٢١ (٥) البقرة : ١٨٧

يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١)

فالنوم هو الموتة الصغرى ، والموت هو النومة الكبرى .

ومن ذلك : التفكر فيما يضرب الله من أمثال ، يُقَرِّب بها المعانى ، ويجعل المعقول فى صورة المحسوس ، كما قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

ومن ذلك المثل الذى ضربه تعالى فى سورة يونس بقوله : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ، كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

ومن ذلك : المثل الذى ضربه الله لمن لم يعمل بعلمه ، ومثلّه بالكلب ، يقول تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَىٰ الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ، ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٤) .

* *

● « التفكر » فى الآيات التنزيلية :

وكما أن الآيات الكونية مجال التفكر ، فإن الآيات التنزيلية هى مجال آخر للتفكر ، تلك آيات مشهودة منظورة ، وهذه آيات مسموعة ومقروءة .

---

(١) الزمر : ٤٢ (٢) الحشر : ٢١
(٣) يونس : ٢٤ (٤) الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦

يقول تعالى : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتفكَّرُونَ ﴾ (١) .

ويقول تعالى بعد ضرب المثل للمنفق المرائى بمن احترقت جنَّته أحوج ما كان إليها هو وذُرِّيته الضعفاء : ﴿ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتفكَّرُونَ ﴾ (٢) .

قال البقاعى فى تفسيره « نظم الدرر » : « ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفكَّرُونَ ﴾ : أى ليكون حالكم حال مَن يُرجى أن يحمل نفسه على الفكر ، ومَن يكون كذلك ينتفع بفكره . قال الحرالىّ : فتبنون الأُمور على تثبيت ، لا خير فى عبادة إلا بتفكر ، كما أن البانى لا بد أن يفكر فى بنائه . كما قال الحكيم : أول الفكرة آخر العمل ، وأول العمل آخر الفكرة . كذلك من حق أعمال الدين ألا تقع إلا بفكرة فى إصلاح أوائلها السابقة ، وأواخرها اللاحقة . فكانوا فى ذلك صنفين ، بما يُشعر به ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ مطابقين للمثل ، متفكر مضاعف حرثه وجنَّته ، وعامل بغير فكرة ، تستهويه أهواء نفسه ، فتلحقه الآفة فى عمله ، فى حرثه وجنَّته من سابقه أو لاحقه » (٣) .

ومن هنا نرى كثرة الآيات أو الدلائل التى نصبها الله فى الكون لهدى عباده إليه ، وتدلهم على الحق الذى أنزل الله به كتبه ، وبعث به رُسُله .

ويقول سبحانه : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفكَّرُونَ ﴾ (٤) .

ويقول عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ، أَفَلَا تَتَفكَّرُونَ ﴾ (٥) .

وهذا تحريض على التفكر وخصوصاً فى أمر الوحى وإثبات النبوة ، والتحقق من أمر محمد ﷺ : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ ، مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٦) .

---

(١) البقرة : ٢١٩ (٢) البقرة : ٢٦٦ (٣) نظم الدرر : ٤/٨٨ ، ٨٩

(٤) النحل : ٤٤ (٥) الأنعام : ٥٠ (٦) الأعراف : ١٨٤

وهناك مجال آخر للتفكر ، وهو الأمثال التى يضربها الله للناس ، ووراءها من العبر ما وراءها . قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) .

وسبب تكثير الأدلة كما يقول الإمام البقاعى فى تفسيره : « أن عقول الناس متفاوتة ، فجعل سبحانه وتعالى العالَم - وهو الممكنات الموجودة - وهى جملة ما سواه ، الدالة على وجوده وفعله بالاختيار على قسمين : قسم من شأنه أن يُدْرَك بالحواس الظاهرة ، ويسمى فى عُرف أهل الشرع : الشهادة والخلق والمُلك ، وقسم لا يُدْرَك بالحواس الظاهرة ويسمى : الغيب والأمر والملكوت ، والأول : يدركه عامة الناس ، والثانى : يدركه أُولو الألباب الذين عقولهم خالصة عن الوهم والوساوس ، فالله سبحانه وتعالى بكمال عنايته ورأفته ورحمته جَعَل العالَم بقسميه محتوياً على جمل وتفاصيل من وجوه متعددة ، وطرق متكثرة ، تعجز القوى البَشرية عن ضبطها ، يستدل بها على وحدانيته ، بعضها أوضح من بعض ، ليشترك الكل فى المعرفة ، فيحصل لكل بقدر ما هيئ له ، اللَّهُمَّ إلَّا أن يكون ممن طُبِع على قلبه ، فذلك - والعياذ بالله سبحانه وتعالى - هو الشقى » (٢) .

وينقل العلامة البقاعى عن الإمام أبى الحسن الحرالىّ فى كتابه « المفتاح » قوله : « اعلم أن الآيات والأحوال تضاف وتتسق لمن اتصف بما به أدرك معناها ، ويؤنَب عليها مَن تقاصر عنها ، وينفى منالها عمن لمن يصل إليها ، وهى أطوار أظهرها آيات الاعتبار البادية لأُولى الأبصار ، لأن الخلق كله إنما هو عَلَم للاعتبار منه - لا أنه موجود للاقتناع به : ﴿ وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (٣) ، اتخذوا ما خلق للعبرة به إلى ربه كسباً لأنفسهم حتى صار عندهم وعند أتباعهم آيتهم ، لا آية خالقه : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ (٤) ، ﴿ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) الحشر : ٢١ (٢) نظم الدرر : ٢/ ٣٠٠ ، ٣٠١ (٣) يونس : ٧ ، ٨
(٤) الشعراء : ١٢٨ (٥) الصافات : ٩٦

ثم يلى آيات الاعتبار ما ينال إدراك آيته العقل الأدنى ببداهة نظره : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .. جمع الآيات لتعدد وجوهها فى مقصد البيان .

ثم يلى ما يدرك ببداهة العقل : ما يحتاج إلى فكر يثيره العقل الأدنى ، لشغل الحواس بمنفعته عن التفكر فى وجه آيته : ﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) ، أَفرد الآية لاستناد كثرته إلى وحدة الماء ابتداءً ، ووحدة الانتفاع انتهاءً .

ثم يلى ما يدرك بفكر العقل الأدنى : ما يقبل بالإيمان ويكون آية أمر قائم على خلق ، وهو ما يدرك سمعاً لأن الخلق مرئى والأمر مسموع : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَاللهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ (٣) .. هذه آية حياة القلوب بنور العلم والحكمة الذى أخذ سمعاً عند تقرر الإيمان ، وعند هذا الحد يتناهى العقل إلى فطرة الأشد وتعلو بداهته ، وترتقى فطره إلى نظر ما يكون آية فى نفس الناظر لأن محار غيب الكون يرد إلى وجدان نقص الناظر ، وكما أن الماء آية حياة القلوب صار الشرابان : اللّبن والخمر ، آيتين على أحوال تخص القلوب بما يغذوها من الله غذاءَ اللّبن وينشيها نشوةَ السكر ، منبعثاً من بين فرث ودم نزولَ الخلق المقام عن الأمر القائم عليه : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ﴾ ... الآيتين إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٤) .

وهذا هو العقل الأعلى ، وأفرد الآية لانفراد موردها فى وجد القلب ، وكما للعقل الأدنى فكرة تنبئ عن بداهته ، فكذلك للعقل الأعلى فكرة تنبئ عن

---

(١) النحل : ١٢
(٢) النحل : ١٠ ، ١١
(٣) النحل : ٦٤ ، ٦٥
(٤) النحل : ٦٦ ، ٦٧

OBEIKAN.COM

علىَ فطرته : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَن اتَّخذى منَ الْجِبَال بُيُوتاً وَمنَ الشَّجَرِ ﴾ . . . إلى قوله : ﴿ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتفكَّرُونَ ﴾ (١) ، وهذا العقل الأعلى هو اللُّب الذى عنه يكون التذكر بالأدنى من الخلق للأعلى من الأمر ، ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (٢) .

وفى مقابلة كل من هذه الأوصاف أضداد يرد البيان فيها بحسب مقابلتها ، وكذلك حكم وصف المسلمين فيما يظهر أن : « لا أنجى للعبد من إسلامه نفسه لربه » ، ووصف المحسنين فيما يظهر قيام ظاهر العبد بربه ، ووصف الموقنين فيما وجد يقينه العبد من نفسه أو عاين ابتداءه بظاهر حسه : ﴿ آلم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ ، هُدىً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) ، من استغنى بما عنده من وجد لم يتفرغ لقبول غيب : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا اتَّقُوْا اللهَ وَآمنُوْا برَسُوله ﴾ (٤) ، ﴿ إِذَا مَا اتَّقَوا وَآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَات ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُواْ ﴾ (٥) ، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (٦) ، ﴿ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٧) ، « فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به » (٨) ، ﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ من دَابَّة آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٩) ، ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِىَ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (١٠) ، وجملة هذه الأوصاف أيضاً أضداد ، يرد بيان القرآن فيها بحسب تقابلها ، ويجرى معها إفهامه ، وما أوصله خفاء المسمع والمرأى إلى القلب هو فقهه ، ومَن فقد ذلك وصف

---

(١) النحل : ٦٨ ، ٦٩ (٢) النحل : ١٣ (٣) البقرة : ١ ، ٢
(٤) الحديد : ٢٨ (٥) المائدة : ٩٣ (٦) آل عمران : ٨٥
(٧) المائدة : ٩٣

(٨) جزء من حديث رواه البخارى (٨/ ١٠٥) باب « التواضع » ، عن أبى هريرة ، كما رواه أحمد ، وأبو يعلى ، والطبرانى ، وأبو نعيم ، وابن عساكر عن عائشة رضى الله عنها ، وذكره السيوطى فى « الجامع الصغير » (١٧٥٢) ، ورمز له بالصحة .
(٩) الجاثية : ٤ (١٠) الأنعام : ٧٥

سمعه بالصمم وعينه بالعمى ، ونفى الفقه عن قلبه ، ونُسب إلى البهيمية ، ومَن لم تنل فكرته أعلام ما غاب عنه عيانه نفى عنه العلم : ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَاءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾ (١) ، ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ﴾ ... الآية إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٤) ، نفى العلم فيما ظهرت أعلامه والفقه فيما خفى أمره ، ومراد البيان عن أضدادها هذه الأوصاف بحسب تقابلها ، وهذا الباب لمن يستفتحه من أنفع فواتح الفهم فى القرآن » (٥) .

* *

● التفكر المخلص مثنىٰ وفرادىٰ :

ومن أروع الآيات التى حثت على التفكر قوله تعالى فى سورة سبأ من القرآن المكى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ، أَن تَقُومُواْ لِلهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ، مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (٦) .

يأمر الله خاتم رسله فى هذه الآية : أن يعظ قومه ويذكّرهم ويرغّبهم فى خصلة واحدة ، لا يريد منهم الآن غيرها ، حتى يعرفوا حقيقة نبوته : أصدق هى أم كذب ؟ وحقيقة شخصيته : أمجنون هو يهذى أم رسول هو يهدى ؟

هذه الخصلة الواحدة المطلوبة مكونة من خطوتين : أولى وثانية .

الخطوة الأولى : أن يقوموا لله مَثْنىٰ وفُرَادىٰ ، والقومة تعنى : النهضة والعزيمة .

---

(١) الكهف : ١٠١
(٢) الأعراف : ١٧٩
(٣) المنافقون : ٨
(٤) المنافقون : ٧
(٥) نظم الدرر للبقاعى : ١١/ ٢٠٠ - ٢٠٤
(٦) سبأ : ٤٦

OBEIKAN.COM

والخطوة الثانية : أن يتفكروا . أى يُعملوا عقولهم ولا يجمدوها .

ومعنى الخطوة الأولى - القومة لله - أن ينهضوا بقوة ، ويتجردوا من أهوائهم وشهوات أنفسهم ، واعتباراتهم النفعية المادية ، ومصالحهم الآنية والشخصية ، ويتوجهوا إلى الله مخلصين فى طلب الحقيقة ، ولم يكن القوم ملحدين ولا جاحدين لوجود الله تعالى ، بل كانوا مُقرِّين بوجوده وخالقيته لهم وللسموات والأرض ، وتدبيره لأمر الكون ، إنما كانت آفتهم فى الشرك الذى أصمَّهم وأعمى أبصارهم . فلا غَرو أن يطلب إليهم القرآن هذه القومة لله متحررين من حب الدنيا ، وحب الذات ، والتقليد الأعمى ، وهذا التجرد أو الإخلاص فى طلب الحقيقة سيضئ لهم السبيل للوصول إليها ، ويكشف الغواشى والأقنعة عن وجهها .

وهذه القومة لله يجب أن تكون بعيدة عن التأثير الجماهيرى والغوغانى ، وتأثير « العقل الجَمعى » كما يسميه علماء النفس ، والتحرر من عواطف المجاملة ومراعاة الخواطر ، ومشاعر الخوف والطمع ، والخجل من مخالفة الآباء ، أو مخالفة الكبراء ، أو الخروج عن الخط العام ، والخشية من الذم أو الإنكار ، وحب المحمدة والثناء . . . إلى آخر هذه العوائق ، بل الأغلال التى تكبل الناس ، وتحول بينهم وبين التفكر الحر المستقل .

ولهذا وعظهم أن يقوموا لله « مثنى وفرادى ، ثم يتكفروا » ، ومعنى هذا أن يفكر كل واحد مع نفسه بمعزل عن تأثير الآخرين ، أو مع صاحب له يتحاوران فى هدوء ، وبدأ بقوله : « مَثْنَى » دلالة على أن الحوار والأخذ والرد الثنائى هنا قد يكون أجدى ، لأن المرء يسمع من صديقه وجليسه ، ولا يأبى أن يسلم له إذا أقنعه ، ولكنه قد يرفض الهزيمة إذا كانت أمام الجمهور .

فهذا التفكير الهادئ المستقل المخلص فى طلب الحقيقة : جدير أن يهدى صاحبه إليها ، وفق سُنَّة الله ، أن من طلب شيئاً بجد وإخلاص من طريقه الصحيح لا بد أن يجده ، فإن مَن جَدَّ وجد ، ومَن سار على الدرب وصل .

أجل . . سينتهى به هذا التفكر لا محالة إلى أن صاحب هذه الدعوة الجديدة ليس بمجنون كما يزعمون ، وما به أى جِنَّة ، كيف وهو كما قال الله تعالى :

OBEIKAN.COM

﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۞ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ۞ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [(١)] .

إن صاحب الخُلُق العظيم يستحيل أن يكون مجنوناً ، لأن المجنون لا ينضبط له سلوك ، ولا يتزن له قول ولا فعل . أما صاحب الخُلُق العظيم ، فكل كلمة عنده بميزان ، وكل فعل عنده بمقدار ، لا يضع الندى فى موضع السيف ، ولا السيف فى موضع الندى ، لا يمزح حيث ينبغى الجد ، ولا يسالم حيث تنبغى الحرب ، ولا يحارب حيث يجب السلام ، يعطى لكل ذى حق حقه ، فهو لا يضيع حق الرب ، ولا يهمل حق الخلق ، ولا ينسى حق النفس ، يسأل الله صلاح دينه الذى هو عصمة أمره ، وصلاح دنياه التى فيها معاشه ، وصلاح آخرته التى إليها معاده ، وبهذا يتمم مكارم الأخلاق التى بُعِث ليتممها . وهذا لا يتم إلا بأعلى أنواع العقل .

وقد ألَّف الأستاذ عباس محمود العقاد - رحمه الله - كتاباً سمَّاه « التفكير فريضة إسلامية » وهو تعبير صحيح شرعاً ، فإن الله تعالى كما أمرنا بالتعبد وإقامة الشعائر من الصلاة والزكاة ، أمرنا بالتفكر والتفكير فى الآيات الكثيرة التى سقناها ، سواء جاءت باسم التفكر أو النظر أو الرؤية ، ولهذا قال مَن قال من السَّلَف : تفكر ليلة خير من إحيائها ، وقال غيره : تفكر ساعة خير من عبادة سنة !

قال العلَّامة البقاعى فى تفسير هذه الآية : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ﴾ : « . . . أى فاسمعوا ولا تنفروا خوفاً من أن أملكم ﴿ أَن تَقُومُواْ ﴾ أى توجهوا نفوسكم إلى تعرف الحق ، وعبَّر بالقيام إشارة إلى الاجتهاد ﴿ لِلَّهِ ﴾ أى الذى لا أعظم منه ، على وجه الإخلاص ، واستحضار ما له من العظمة ، بما له لديكم من الإحسان ، لا لإرادة المغالبة ، ﴿ مَثْنَىٰ ﴾ أى اثنين اثنين ﴿ وَفُرَادَىٰ ﴾

---

(١) القلم : ٢ - ٤

OBEIKAN.COM

أى واحداً واحداً . مَن وثق بنفسه فى رصانة عقله ، وأصالة رأيه ، قام وحده ، ليكون أصفى لسره ، وأعون على خلوص فكره ، ومَن خاف عليها ضم إليه آخر ، ليذكِّره إن نسى ، ويقوِّمه إن زاغ .

قال : ولما كان هذا القسم أكثر وجوداً فى الناس قدّمه .

« ولم يذكر غيرهما من الأقسام إشارة إلى أنهم إذا كانوا على هاتين الحالتين كان أجدر لهم بأن يعرفوا الحق ، من غير شائبة حظ ، مما يكون فى الجمع الكثير من الجدال واللَّغط المانع من تهذيب الرأى ، وتثقيف الفكر ، وتنقية المعانى .

« ولما كان ما طلب منهم هذا لأجله عظيماً ، جديراً بأن يُهتم له هذا الاهتمام ، أشار إليه بأداة التراخى ، فقال : ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ أى تجتهدوا بعد التأنى وطول التروى فى الفكر . . . » (١) .

* *

● سعة مجال الفكر فى نظر القرآن :

يقول الإمام الغزالى فى بيان مجال الفكر : « الموجودات المخلوقة منقسمة إلى : ما لا يُعرف أصلها ، فلا يمكننا التفكر فيها ، وكم من الموجودات التى لا نعلمها ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

وإلى ما يُعرف أصلها وجملتها ، ولا يُعرف تفصيلها ، فيمكننا أن نتفكر فى تفصيلها . وهى منقسمة إلى ما أدركناه بحس البصر ، وإلى ما لا ندركه بالبصر . أما الذى لا ندركه بالبصر . فكالملائكة والجن والشياطين

---

(١) تفسير « نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور » : ١٥/٥٢٩ ، ٥٣٠ - طبعة حيدر آباد . الهند .

(٢) النحل : ٨   (٣) يس : ٣٦   (٤) الواقعة : ٦١

والعرش والكرسى وغير ذلك . ومجال الفكر فى هذه الأشياء مما يضيق ويغمض .

فلنعدل إلى الأقرب إلى الأفهام ، وهى المدركَات بحس البصر . وذلك هو السموات السبع والأرض وما بينهما ، فالسموات مشاهَدة بكواكبها وشمسها وقمرها ، وحركتها ، ودورانها فى طلوعها وغروبها ، والأرض مشاهَدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها ، وما بين السماء والأرض وهو الجوّ مدرَك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها . فهذه هى الأجناس المشاهَدة من السموات والأرض وما بينهما ، وكل جنس منها ينقسم إلى أنواع ، وكل نوع ينقسم إلى أقسام ، ويتشعب كل قسم إلى أصناف . ولا نهاية لانشعاب ذلك وانقسامه فى اختلاف صفاته وهيئاته ، ومعانيه الظاهرة والباطنة . وجميع ذلك مجال الفكر . فلا تتحرك ذَرَّة فى السموات والأرض من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب إلّا والله تعالى هو محركها ، وفى حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة ، كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية ، ودال على جلاله وكبريائه ، وهى الآيات الدالة عليه .

وقد ورد القرآن بالحث على التفكر فى هذه الآيات كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِى الأَلْبَابِ ﴾ (١) ، وكما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ (٢) من أول القرآن إلى آخره . فلنذكر كيفية الفكر فى بعض الآيات .

فمن آياته : الإنسان المخلوق من النطفة ، وأقرب شىء إليك نفسك وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضى الأعمار فى الوقوف على

---

(١) آل عمران : ١٩٠

(٢) الروم : ٢٠ ، ٢٥ ، وفصلت : ٣٧ ، ٣٩ ، والشورى : ٢٩ ، ٣٢ ، وغيرها .

OBEIKAN.COM

عُشر عُشيره وأنت غافل عنه ، فيا مَن هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع فى معرفة غيرك ؟ وقد أمرك الله تعالى بالتدبر فى نفسك فى كتابه العزيز فقال : ﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (١) ، وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال : ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (٥) ، وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ (٦) ، وقال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ (٧) ، ثم ذكر : كيف جعل النطفة علقة ، والعلقة مُضغة ، والمضغة عظاماً ، فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ (٨) .... الآية .

فتكرير ذكر النطفة فى الكتاب العزيز ليس ليُسمع لفظه ويُترك التفكر فى معناه ، فانظر الآن إلى النطفة وهى قطرة من الماء قذرة لو تُركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنتنت ، كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب ، وكيف جمع بين الذكر والأنثىٰ وألقى الأُلفة والمحبة فى قلوبهم ، وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع ، وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع » (٩) .... إلى آخر ما ذكره فى كتاب

---

(١) الذاريات : ٢١ (٢) عبس : ١٧ - ٢٢ (٣) الروم : ٢٠

(٤) القيامة : ٣٧ ، ٣٨ (٥) المرسلات : ٢٠ - ٢٢ (٦) يس : ٧٧

(٧) الإنسان : ٢ (٨) المؤمنون : ١٢ - ١٤

(٩) « إحياء علوم الدين » مع شرحه « إتحاف السادة المتقين » : ١٣ / ٣٥٠ - ٣٥٣

OBEIKAN.COM

التفكر ، وغدونا الآن ندركه أكثر وأعمق ، لما ملّكه لنا العلم من وسائل وأسباب .

ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله فى كتابه « مفتاح دار السعادة » فى وجوه فضل العلم : « ما ثبت عن بعض السَّلَف أنه قال : تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة !

وسأل رجلٌ أُمَّ الدرداء بعد موته عن عبادته ، فقالت : كان نهاره أجمعه فى بادية التفكر !

وقال الحسن : تفكر ساعة خير من قيام ليلة .

وقال الفضيل : التفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك .

وقيل لإبراهيم : إنك تطيل الفكرة ! فقال : الفكرة مخ العمل !

وكان سفيان بن عيينة كثيراً ما يتمثل :

إذا المرء كانت له فكرة ففى كل شىء له عبرة !

وقال الحسن فى قوله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِىَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (١) قال : « أمنعهم التفكر فيها » .

وقال بعض العارفين : لو طالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ما قدر فى حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم فى الدنيا عيش ، ولم تقر لهم فيها عَيْن .

وقال الحسن : طول الوحدة أتم للفكرة ، وطول الفكرة دليل على طريق الجنة .

وقال وهب : ما طالت فكرة أحد قط إلا علم ، وما علم امرؤ قط إلا عمل .

وقال عمر بن عبد العزيز : الفكرة فى نعم الله من أفضل العبادة .

---

(١) الأعراف : ١٤٦

وقال عبد الله بن المبارك لبعض أصحابه وقد رآه مفكراً : أين بلغت ؟ قال : الصراط !

وقال بشر بن الحارث : لو فكَّر الناس فى عظمة الله ما عصوه .

وقال ابن عباس : ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب !

وقال أبو سليمان : الفكر فى الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية ، والفكرة فى الآخرة تورث الحكمة وتجلى القلوب .

وقال ابن عباس : التفكر فى الخير يدعو إلى العمل به .

وقال الحسن : إن أهل العلم لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر ، وبالفكر على الذكر ، ويناطقون القلوب ، حتى نطقت بالحكمة .

ومن كلام الشافعى : استعينوا على الكلام بالصمت ، وعلى الاستنباط بالفكر (١) .

قال العلامة ابن القيم : « وهذا لأن الفكرة عمل القلب ، والعبادة عمل الجوارح ، والقلب أشرف من الجوارح ، فكان عمله أشرف من عمل الجوارح .

وأيضاً فالتفكر يوقع صاحبه من الإيمان على ما لا يوقعه عليه العمل المجرد ، فإن التفكر يوجب له من انكشاف حقائق الأُمور ، وظهورها له ، وتميز مراتبها فى الخير والشر ، ومعرفة مفضولها من فاضلها ، وأقبحها من قبيحها ، ومعرفة أسبابها الموصلة إليها ، وما يقاوم تلك الأسباب ويدفع موجبها ، والتمييز بين ما ينبغى السعى فى تحصيله وبين ما ينبغى السعى فى دفع أسبابه ، والفرق بين الوهم والخيال المانع لأكثر النفوس من انتهاز الفرص بعد إمكانها ، وبين السبب المانع حقيقة ، فيشتغل به دون الأول ، فما قطع العبد عن كماله

---

(١) ذكر هذه الآثار الغزالى فى كتاب « التفكر » من ربع المنجيات من « إحيائه » وخرجها شارحه الزبيدى فى « اتحاف السادة المتقين » : جـ ١٣

وفلاحه وسعادته العاجلة والآجلة قاطع أعظم من الوهم الغالب على النفس والخيال الذى هو مركبها ، بل بحرها الذى لا تنفك سابحة فيه ، وإنما يقطع هذا العارض بفكرة صحيحة وعزم صادق يميز به بين الوهم والحقيقة ، وكذلك إذا فكر فى عواقب الأُمور وتجاوز فكره مباديها وضعها مواضعها ، وعلم مراتبها ، فإذا ورد عليه وارد الذنب والشهوة فتجاوز فكره لذَّته وفرح النفس به إلى سوء عاقبته وما يترتب عليه من الألم والحزن الذى لا يقاوم تلك اللَّذة والفرحة ، ومَن فَكَّر فى ذلك فإنه لا يكاد يقدم عليه ، وكذلك إذا ورد على قلبه وارد الراحة والدعة والكسل والتقاعد عن مشقة الطاعات وتعبها حتى عبر بفكره إلى ما يترتب عليها من اللَّذات والخيرات والأفراح التى تغمر تلك الآلام التى فى مباديها بالنسبة إلى كمال عواقبها ، وكلما غاص فكره فى ذلك اشتد طلبه لها وسهل عليه معاناتها ، واستقبلها بنشاط وقوة وعزيمة » (١) .

قال ابن القيم (٢) : « إذا عرف هذا فالفكر هو إحضار معرفتين فى القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة .

ومثال ذلك : إذا أحضر فى قلبه العاجلة وعيشها ونعيمها وما يقترن به من الآفات وانقطاعه وزواله ، ثم أحضر فى قلبه الآخرة ونعيمها ولذَّته ودوامه وفضله على نعيم الدنيا ، وجزم بهذين العلمين أثمر له ذلك علماً ثالثاً ، وهو أن الآخرة ونعيمها الفاضل الدائم أولى عند كل عاقل بإيثاره من العاجلة المنقطعة المنغصة .

ثم له فى معرفة الآخرة حالتان :

إحداهما : أن يكون قد سمع ذلك من غيره من غير أن يباشر قلبه برد

---

(١) « مفتاح دار السعادة » لابن القيم : ١/ ١٨٠ ، ١٨١

(٢) ومقاله هنا تلخيص لما قاله الغزالى فى كتاب « التفكر » من « الإحياء » مع تنقيح وزيادة .

OBEIKAN.COM

اليقين به ولم يفض قلبه إلى مكافحة حقيقة الآخرة ، وهذا حال أكثر الناس ، فيتجاذبه داعيان ، أحدهما : داعى العاجلة وإيثارها وهو أقوى الداعيين عنده ؛ لأنه مشاهد له محسوس ، وداعى الآخرة ، وهو أضعف الداعيين عنده ؛ لأنه داع عن سماع لم يباشر قلبه اليقين به ولا كافحه حقيقته العلمية ، فإذا ترك العاجلة للآخرة تريه نفسه بأنه قد ترك معلوماً لمظنون أو متحققاً لموهوم ، فلسان الحال ينادى عليه : لا أدع ذَرَّة منقودة لدُرَّة موعودة ! وهذه الآفة هى التى منعت النفوس من الاستعداد للآخرة ، وأن يسعى لها سعيها . وهى من ضعف العلم بها وتيقنها وإلا فمع الجزم التام الذى لا يخالج القلب فيه شك لا يقع التهاون بها وعدم الرغبة فيها ، ولهذا لو قدم لرجل طعام فى غاية الطيب واللَّذة ، وهو شديد الحاجة إليه ثم قيل له : إنه مسموم ، فإنه لا يقدم عليه ؛ لعلمه بأن سوء ما تجنى عاقبة تناوله تربو فى المضرَّة على لذَّة أكله . فما بال الإيمان بالآخرة لا يكون فى قلبه بهذه المنزلة ؟ ما ذاك إلا لضعف شجرة العلم والإيمان بها فى القلب وعدم استقرارها فيه . وكذلك إذا كان سائراً فى طريق فقيل له : إن بها قُطَّاعاً ولصوصاً يقتلون مَن وجدوه ، ويأخذون متاعه ، فإنه لا يسلكها إلا على أحد وجهين : إما أن لا يصدق المخبر ، وإما أن يثق من نفسه بغلبتهم وقهرهم والانتصار عليهم ، وإلا فمع تصديقه للخبر تصديقاً لا يتمارى فيه ، وعلمه من نفسه بضعفه وعجزه عن مقاومتهم ، فإنه لا يسلكها ، ولو حصل له هذان العلمان فيما يرتكبه من إيثار الدنيا وشهواتها لم يقدم على ذلك ، فعلم أن إيثاره للعاجلة وترك استعداده للآخرة لا يكون قط مع كمال تصديقه وإيمانه أبداً .

الحالة الثانية : أن يتيقن ويجزم جزماً لا شك فيه بأن له داراً غير هذه الدار ، ومعاداً له خُلِق ، وأن هذه الدار طريق إلى ذلك المعاد ، ومنزل من منازل السائرين إليه ، ويعلم مع ذلك أنها باقية ، ونعيمها وعذابها لا يزول ، ولا نسبة لهذا النعيم والعذاب العاجل إليه ، إلا كما يدخل الرجل أصبعه فى اليم

OBEIKAN.COM

ثم ينزعها ، فالذى تعلَّق بها منه هو كالدنيا بالنسبة إلى الآخرة ، فيُثمر له هذا العلم إيثار الآخرة وطلبها والاستعداد التام لها ، وأن يسعى لها سعيها . وهذا يسمّى : تفكراً ، وتذكراً ، ونظراً ، وتأملاً ، واعتباراً ، وتدبراً ، واستبصاراً ، وهذه معان متقاربة تجتمع فى شىء وتتفرق فى آخر .

ويسمى تفكراً ؛ لأنه استعمال الفكرة فى ذلك ، وإحضاره عنده .

ويسمى تذكراً ؛ لأنه إحضار للعلم الذى يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه . ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (١) .

ويسمى نظراً ؛ لأنه التفات بالقلب إلى المنظور فيه .

ويسمى تأملاً ؛ لأنه مراجعة للنظر كَرَّة بعد كَرَّة ، حتى يتجلى له وينكشف لقلبه .

ويسمى اعتباراً وهو افتعال من العبور ؛ لأنه يعبر منه إلى غيره ، فيعبر من ذلك الذى قد فكر فيه إلى معرفة ثالثة ، وهى المقصود من الاعتبار ، ولهذا يسمى عبرة ، وهى على بناء الحالات كالجِلسة والرِّكبة والقِتلة ، إيذاناً بأن هذا العلم والمعرفة قد صار حالاً لصاحبه يعبر منه إلى المقصود به . وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِى الأَبْصَارِ ﴾ (٣) .

ويسمى تدبراً ؛ لأنه نظر فى أدبار الأُمُور ، وهى أواخرها وعواقبها ، ومنه تدبّر القول . وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ الْقَوْلَ ﴾ (٤) ، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾ (٥) . وتدبر

---

(١) الأعراف : ٢٠١ (٢) النازعات : ٢٦ (٣) النور : ٤٤

(٤) المؤمنون : ٦٨ (٥) النساء : ٨٢

الكلام : أن ينظر فى أوله وآخره ، ثم يعيد نظره مرة بعد مرة ، ولهذا جاء على بناء التفعل كالتجرع والتفهم والتبين .

وسمى استبصاراً ؛ وهو استفعال من التبصر ، وهو تبين الأمر وانكشافه ، وتجليه للبصيرة .

وكل من التذكر والتفكر له فائدة غير فائدة الآخر . فالتذكر يفيد تكرار القلب على ما علمه وعرفه ليرسخ فيه ويثبت ، ولا ينمحى فيذهب أثره من القلب جملة . والتفكر يفيد تكثير العلم واستجلاب ما ليس حاصلاً عند القلب . فالتفكر يحصله والتذكر يحفظه . ولهذا قال الحسن : ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر ، وبالتفكر على التذكر ، ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة . فالتفكر والتذكر بذار العلم ، وسقيه مطارحته ، ومذاكرته تلقيحه كما قال بعض السَّلَف : ملاقاة الرجال تلقيح لألبابها . فالمذاكرة بها لقاح العقل .

فالخير والسعادة فى خزانة مفتاحها التفكر ؛ فإنه لا بد من تفكر ، وعلم يكون نتيجة الفكر ، وحال يحدث للقلب من ذلك العلم . فإن كل مَن علم شيئاً من المحبوب أو المكروه لا بد أن يبقى لقلبه حالة وينصبغ بصبغة من علمه ، وتلك الحال توجب له إرادة ، وتلك الإرادة توجب وقوع العمل . فهاهنا خمسة أُمور : الفكر وثمرته العلم ، وثمرتهما الحالة التى تحدث للقلب ، وثمرة ذلك الإرادة ، وثمرتها العمل ، فالفكر إذَنْ هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها .

وهذا يكشف لك عن فضل التفكر وشرفه ، وأنه من أفضل أعمال القلب وأنفعها له ، حتى قيل : تفكر ساعة خير من عبادة سنة . فالفكر هو الذى ينقل من موت الغفلة إلى حياة اليقظة ، ومن المكاره إلى المحاب ، ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة ، ومن سجن الدنيا إلى فضاء الآخرة ، ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم ورحبه ، ومن مرض الشهوة والإخلاد إلى

هذه الدار إلى شفاء الإنابة إلى الله ، والتجافى عن دار الغرور ، ومن مصيبة العمى والصمم والبكم إلى نعمة البصر والسمع والفهم عن الله ، والعقل عنه . ومن أمراض الشبهات إلى برد اليقين وثلج الصدور .

وبالجملة . . فأصل كل طاعة إنما هى الفكر ، وكذلك أصل كل معصية إنما يحدث من جانب الفكرة ، فإن الشيطان يصادف أرض القلب خالية فارغة ، فيبذر فيها حب الأفكار الردية ، فيتولد منه الإرادات والعزوم ، فيتولد منها العمل ، فإذا صادف أرض القلب مشغولة ببذر الأُفكار النافعة فيما خُلِق له ، وفيما أُمِر به ، وفيما هُيئَ له وأُعِدَ له ، من النعيم المقيم أو العذاب الأليم ، لم يجد لبذره موضعاً ، وهذا كما قيل :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً فارغاً فتمكنا » ! [1]

* * *

(١) انظر : « مفتاح دار السعادة » : ١/ ١٨١ - ١٨٣

الدعوة إلى التذكر

وكما رأينا القرآن دعا وأكد الدعوة إلى التفكر ، رأيناه كذلك دعا وأكد الدعوة إلى التذكر .

والتذكر من عمليات العقل العليا ، والذاكرة هى الخزانة التى يحتفظ الإنسان فيها بمعارفه ومعلوماته ، ليستجلبها عند الحاجة ، ولا يستغنى الإنسان عن الذاكرة والتذكر فى حياته الدنيوية أو الدينية ، ومَن فقد ذاكرته فإنما فقد نفسه ، لأنه أصبح بلا ماض ولا تاريخ .

والفرق بين التفكر والتذكر : أن التفكر يعمل لتحصيل معرفة جديدة ، والتذكر يعمل لجلب معرفة قديمة ، ذهل عنها ، أو غشيتها الغفلة والنسيان .

والغفلة شر داء يصيب الإنسان فيُذهله عن الحقائق الكبيرة ، والمهمات الخطيرة ، حتى ينساها تماماً ، وكأنه لا يعرفها ، أو لا يعلم عنها شيئاً .

ولهذا وصف الله الكفار من أهل جهنم الذين عطلوا أدوات المعرفة عندهم من القلوب والأبصار والأسماع بقوله : ﴿ أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (١) ، فدل على أن الغفلة هى أصل الداء ، وجرثومة البلاء .

وقال عن أمثالهم : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٢) .

ووصف أكثر الناس بقوله : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (٣) .

وقال عن فرعون وجنوده : ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِى الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ (٤) .

---

(١) الأعراف : ١٧٩
(٢) النحل : ١٠٨
(٣) الروم : ٦ ، ٧
(٤) الأعراف : ١٣٦

وقد يُعبِّر القرآن عن هذه الغفلة بالنسيان ، الذى يصيب بعض الناس ، حتى إنه لينسى ربه الذى خلقه فسوَّاه ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، قال تعالى فى وصف المنافقين : ﴿ نَسُواْ اللهَ فَنَسِيَهُمْ ، إنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١) .

والله تعالى لا يَنسى ، كما قال على لسان موسى : ﴿ لا يَضِلُّ رَبِّى وَلا يَنسَى ﴾ (٢) ، وإنما نسيانه لهم يعنى الإهمال والترك فيكونون كالشيء المنسى المهمل .

وقال تعالى : ﴿ وَلا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ نَسُواْ اللهَ فَأَنساهُمْ أَنفُسَهُمْ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٣) .

لقد كانت عقوبة الله تعالى لهم على نسيانهم له أن أنساهم أنفسهم وذواتهم ، وأى عقوبة أعظم ، وأى مصيبة أكبر من أن ينسى الإنسان حقيقة نفسه ، فلا يعرف لها غاية فى الوجود ، ولا رسالة فى الحياة ، ولا يجد فرقاً بينها وبين الأنعام ، فهو يعيش فى هذه الدار ميتاً وهو فى صورة الحى ، معدوماً وهو فى عِداد الموجودين .

ومن أجل هذا كان من مهمة الرسول « التذكير » ، كما أن من مهمته الإنذار والتبشير ، قال تعالى لرسوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ (٤) ، كما قال له : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ (٥) .

وقال سبحانه : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦) ، ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ (٧) ، ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (٨) .

---

(١) التوبة : ٦٧ (٢) طه : ٥٢ (٣) الحشر : ١٩
(٤) الغاشية : ٢١ (٥) هود : ١٢ (٦) الذاريات : ٥٥
(٧) الأعلى : ٩ (٨) سورة ق : ٤٥

ومن هنا سُمى القرآن « تذكرة » فى أكثر من آية : ﴿ طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ (١) .

﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) .

﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ (٣) .

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ، فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ (٤) .

ولقد تكرر فى سورة القمر قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (٥) .

وأحياناً يُعبِّر عن القرآن وآياته بأنه « ذكرىٰ » .

قال تعالى : ﴿ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٦) .

﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٧) .. فهو ذكرى للعالمين عموماً من حيث هدف إنزاله ، وذكرى للمؤمنين خصوصاً ، من حيث الانتفاع به .

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَجَاءَكَ فِى هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨) .

والكتب السماوية كلها تحمل هذه الذكرى لمن يعقلونها ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ * هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِى الْأَلْبَابِ ﴾ (٩) .

بل آيات الله تعالى فى الآفاق وفى الأنفس ، وسُننه فى الكون والمجتمع ،

---

(١) طه : ١ - ٣ (٢) الحاقة : ٤٨ (٣) المدثر : ٥٤ ، ٥٥
(٤) المزمل : ١٩ ، والإنسان : ٢٩ (٥) القمر : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ .
(٦) الأنعام : ٩٠ (٧) الأعراف : ٢ (٨) هود : ١٢٠
(٩) غافر : ٥٣ ، ٥٤

OBEIKAN.COM

وأحداثه فى التاريخ ومصاير الأُمم ، كلها موضع للذكرى والتذكر ، مثل آياته المنزَّلة فى كتبه على رُسُله .

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُوْلِى الأَلْبَابِ ﴾ (١) .

وقال تعالى بعد أن ذكر السماء والأرض والجبال والنبات ، وكيف أحسن الله خلقها ، وأتقن صنعها : ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ (٢) .

وقال تعالى فى قصة أيوب ، وكيف عافاه الله بعد ابتلاء ، وشفاه بعد سقم ، وكشف ما به من ضر ، وأعاد إليه أهله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لأُوْلِى الأَلْبَابِ ﴾ (٣) .

وقد تكرر فى القرآن مرات عدة : أن التذكر من صفات أُولى الألباب ، بل إنه مقصور عليهم مخصوص بهم ، كما تفيده صيغة « إنما » أو صيغة « ما و« إلَّا » .

يقول تعالى : ﴿ يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ، وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْراً كَثِيراً ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (٤) .

﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (٥) .

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (٦) .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (٧) .

---

(١) الزمر : ٢١ (٢) سورة ق : ٨ (٣) سورة ص : ٤٣
(٤) البقرة : ٢٦٩ (٥) آل عمران : ٧ (٦) الرعد : ١٩
(٧) الزمر : ٩

فالتذكر هنا مثل التفكر ، يشمل عالم الخلق وعالم الأمر ، يشمل آيات الله المنظورة ، وآياته المسطورة ، آياته فى المصحف الصامت ؛ وهو الكون ، وآياته فى المصحف الناطق وهو القرآن .

يؤكد هذا قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ (١) .

﴿ هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

فالتذكر إذن من عمل العقلاء أُولى الألباب ، لا من عمل غيرهم ، فهم الذين يتفكرون ويتذكرون . وقد قال الإمام الغزالى : « فكل متفكر متذكر ، وليس كل متذكر متفكراً » .

وفائدة التذكر أو التذكار : تكرار المعارف على القلب ، واسترجاع ما فات منها بالذهول والنسيان والغفلة ، لترسخ وتثبت ولا تنمحى عن القلب ، وفائدة التفكر : تكثير العلم ، واستجلاب معرفة ليست حاصلة من قبل ، فهذا هو الفرق من التذكر والتفكر (٣) .

ولقد حضَّ القرآن على التذكر فى آيات وفيرة بهذه الصيغة الخاصة المحرضة : ﴿ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ ، أو ﴿ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ ؟

نقرأ فى ذلك قوله تعالى على لسان الخليل إبراهيم فى محاجة قومه : ﴿ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً ، أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٤) .

وقوله سبحانه : ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِىٍّ وَلا شَفِيعٍ ، أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة ص : ٢٩ (٢) إبراهيم : ٥٢
(٣) انظر : إحياء علوم الدين ، كتاب « التفكر » : ٤/ (٤) الأنعام : ٨٠
(٥) السجدة : ٤

OBEIKAN.COM

وفى موضع مماثل يقول : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، يُدَبِّرُ الأَمْرَ ، مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ، ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) .

ويقول تعالى : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

وفى مقام آخر : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

وفى مقام المحاورة مع المشركين : ﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لله ، قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٤) .

وفى حوار آخر : ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٥) .

وفى موضع آخر : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٦) .

كما بيَّنت الآيات الكريمة أن التذكر كان هو العلَّة المرجوة من كثير مما أنزل الله أو ما فصَّله أو ما بيَّنه من آيات وأحكام ، وما صنعه فى خلقه من أحوال وأفعال . اقرأ فى ذلك : ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٧) .

﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٨) .

---

(١) يونس : ٣ — (٢) هود : ٢٤ — (٣) النحل : ١٧

(٤) المؤمنون : ٨٤ ، ٨٥ — (٥) الصافات : ١٥٣ - ١٥٥ — (٦) الجاثية : ٢٣

(٧) النور : ١ — (٨) الأنعام : ١٥٢

OBEIKAN.COM

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

﴿ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٤) .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٥) .

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٦) .

﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٧) .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (٨) .

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (٩) .

ومع هذا التحضيض والتحريض ، ومع هذا البيان وضرب الأمثال ، فإن القرآن يقرر أنهم قليلاً ما يتذكَّرون ، فالغفْلة هى الغالبة ، والنسيان هو المتحكم .

يقول سبحانه : ﴿ أَوَ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (١٠) .

ويقول تعالى : ﴿ اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١١) .

ويقول عن التوحيد : ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ، قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١٢) .

---

(١) النحل : ٩٠ — (٢) البقرة : ٢٢١ — (٣) الذاريات : ٤٩
(٤) الأعراف : ٥٧ — (٥) الزمر : ٢٧ — (٦) الدخان : ٥٨
(٧) إبراهيم : ٢٥ — (٨) النحل : ١٣ — (٩) الأنعام : ١٢٦
(١٠) التوبة : ١٢٦ — (١١) الأعراف : ٣ — (١٢) النمل : ٦٢

ويقول عن القرآن : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ، قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ، قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) .

هذه الحملة القرآنية المكثفة من أجل الدعوة إلى « التذكر » بهذه الأساليب المتنوعة ، والصور الجمَّة المتعددة ، تدلنا على ضرورة التذكر للإنسان فى الحياة عامة ، وفى الحياة الدينية خاصة .

فإنما يستفيد من نور الوحى ، ومن هداية الله ، ومن هَدْى رسوله مَن تذكر فنفعته الذكرى ، فخشى الله تعالى كما قال عزَّ وجَلَّ : ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ (٢) .

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾ (٣) .

وقال تعالى فى وصف عباد الرحمن : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾ (٤) .

وقال فى وصف المتقين : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (٥) . . أى تذكروا جلال الله تعالى وعظمته ، واطلاعه عليهم ، ووقوفهم غداً بين يديه ، فإذا هم مبصرون للغاية ، مبصرون للطريق ، مبصرون لما يجب ، ولما هم فيه ، وهذا الإبصار هو الذى يضئ لهم السبيل ، ويكفهم عن السير فى ركاب الشيطان .

يقول العلامة الزبيدى فى « شرح الإحياء » فى بيان أهمية التذكر :

« اعلم أن القلب إذا انتبه من غفلته وتيقظ من رقدته تذكر ما كان نسيه ، وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ (٦) ، فجعل الإنابة

---

(١) الحاقة : ٤١ ، ٤٢ — (٢) الأعلى : ١٠ — (٣) عبس : ٣ ، ٤

(٤) الفرقان : ٧٣ — (٥) الأعراف : ٢٠١ — (٦) غافر : ١٣

OBEIKAN.COM

شرطاً للانتفاع بالتذكر . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (١) ، فجعل للتذكر ثلاثة أسباب : إلقاء السمع ، وحضور القلب ، وشهوده للفهم ، فعلى هذا يكون حقيقة التذكر استدعاء ما كان موجوداً عنده ثم نسيه ، وتكراره على القلب حتى يثبت ويرسخ ، وسبب ذلك أن العلوم كلها مركوزة فى النفوس بالفطرة ، وهى كامنة فيها ككمون النار فى الحجر ، والنخلة فى النواة ، وذلك أنها قابلة لإدراك العلوم كلها ، فالمعلم لا يُحدث لها شيئاً من خارج ، وإنما يُخرج بالتعليم ما هو كامن فيها ، وإنما طرأ عليه النسيان بسبب اغترابها فى عالَم الشهادة ، عالَم الخيال والظلمة ، فمتى سكت عنها حركة الخيال وظلمة الشهوات تجلَّى لها عالَمها الذى هو من أمر الله تعالى المنزّه عن الخيالات والأوهام وعن الجهات والمقدار ، فحينئذ تذكر ما أودعه عندها سيدها ومالكها وهاديها ، من الاعتراف بوجوده ووحدانيته ، وكل صفة تليق بعظمته وكبريائه ، فمن حُرِم مثل هذا الاستبصار فقد خاب من الرحمة بطريق النظر والاعتبار ، فإنه تعالى أمرنا على لسان أنبيائه عليهم السلام بالتذكار ، ثم لم يكلنا إلى أنفسنا حتى نبهنا فقال سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ، وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ❊ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ (٢) .. والتذكر يتعلق بالعقد والقول ، والفعل والترك ، وهو واجب فيما يجب من ذلك .... وما دام المريد مفتقراً إلى التفكر ، فلا بد من التذكر ؛ لأن التفكر هو استمداد الأنوار من الأذكار .. وبشرف التذكر يشرف متعلقه ، وعلامة صحة التذكر موافقة الشرع فى جميع مراتبه ، فمتى وقع له غير ذلك فليعلم خطأه » (٣) .

❊ ❊ ❊

---

(١) سورة ق : ٣٧ (٢) سورة ص : ٦٥ ، ٦٦

(٣) إتحاف السادة المتقين ، شرح إحياء علوم الدين ، للسيد مرتضى الزبيدى - طبع دار الكتب العلمية ، بيروت : ١٣ / ٣١٦

شهادة المنصفين من المفكرين الغربيين

إن « العقلانية » فى القرآن أمر واضح تمام الوضوح ، لا يخطئه أى قارئ للقرآن برئ من العصبية والتقليد ، بل يجدها مبثوثة فى ثنايا سوره مكية كانت أو مدنية ، وهذا ما وجدنا كثيرين من غير المسلمين شهدوا به ، وآخر مَن قرأنا لهم ذلك ما قاله كبير المستشرقين الفرنسيين المعاصرين ، أو كما يُعبِّر هو عن نفسه بأنه « مستعرب » وليس بـ « مستشرق » ، وهو العالِم الاجتماعى الكبير المعروف فى عالَم الفكر والثقافة الأستاذ « چاك بيرك » ، الذى ترجم معانى القرآن إلى اللُّغة الفرنسية ، بعد أن قضى فى ذلك عشرين عاماً أو تزيد ، وقال فى ذلك : « لقد تبينت لى بوضوح عقلانية القرآن ، فى كل سورة من سوره ، وفى كل آية من آياته ، وذلك ثمرة مصاحبة ومعايشة طويلة للقرآن » .

وهناك شهادة أُخرى أكثر تفصيلاً وبياناً ، نجدها فى فصل « العقيدة القرآنية » من كتاب الكاتب اليهودى الماركسى الفرنسى المعروف « ماكسيم رودنسون » ، الذى ألَّفه عن « الإسلام والرأسمالية » . فرغم ما فى الكتاب من مآخذ ، نجده ينصف الإسلام - أو القرآن - فى هذا الجانب ، ولا بأس أن أنقل بعض فقرات من هذا الفصل .

يقول « رودنسون » : « القرآن كتابٌ مقدس تحتل فيه العقلانية مكاناً جدَّ كبير ، فالله لا ينفك فيه يناقش ويقيم البراهين . بل إن أكثر ما يلفت النظر هو أن الوحى نفسه ، هذه الظاهرة الأقلّ اتساماً بالعقلانية فى أى دين ، الوحىَ الذى أنزله الله على مختلف الرُسل عبر العصور وعلى خاتمهم محمد ، يعتبره القرآن هو نفسه أداة للبرهان . فهو فى مناسبات عديدة يكرر لنا أن الرُسل قد جاءوا بالبيِّنات (١) . فإذا تساءلت : ما الذى يضمن صحة الدلالة

---

(١) كما فى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾ (الحديد : ٢٥) ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ (المائدة : ٣٢) ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ﴾ (الأعراف : ١٠١) ، وقوله تعالى عن يوسف : ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ (غافر : ٣٤) .

فى هذه البينات ، بدا لك أن هذه الضمانة - لدى محمد - تكمن فى معايير من التلاحم الداخلى ، من التوافقُ الجوهرى بين مختلف ما أُنزل من وَحى فى حقب مختلفة ، على شعوب مختلفة ، وبواسطة رُسل مختلفين ، بل إن الوحى الذى أُنزل على محمد نفسه يَضْمنُه أنه متماثلٌ جوهرياً مع الوحى الذى أُنزل على غيره من قبل (١) ، والذى يبدو له أمراً وَثَّقه التاريخ . وهو لا يألو يتحدى معارضيه أن يأتوا بوحى مثله (٢) ، وَحى يحمل نفس السمات الإلهية شكلاً ومضموناً ، أن يأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى مما أُنزل على موسى وعلى محمد (٣) . . . فإذا لم يقبلوا بهذه المعايير ففى المستطاع اللجوء إلى محاكمة تماثل « الرهان » المعروف لدى « باسكال » . وذلك هو ما يفعله « مؤمنٌ من آل فرعون يكتم إيمانه » دفاعاً عن موسى : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّىَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ من رَبِّكُمْ ، وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ، وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾ (٤) .

والقرآن ما ينفك يُقدِّم البراهين العقلانية على القدرة الإلهية : ففى خلق السموات والأرض ، واختلاف اللَّيل والنهار ، وتوالد الحيوان ، ودوران الكواكب والأفلاك ، وتنوع خيرات الحياة الحيوانية والنباتية تنوعٌ رائع التطابق مع حاجات البشر ، ﴿ لآيَاتٍ لأُولِى الأَلْبَابِ ﴾ (٥) .

---

(١) كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ من بَعْده ﴾ (النساء : ١٦٣) ، وقوله : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّين مَا وَصَّىٰ بِه نُوحاً وَالَّذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِه إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فيه ﴾ (الشورى : ١٣) .

(٢) كما فى قوله تعالى : ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيث مِّثْله إِنْ كَانُواْ صَادقينَ ﴾ (الطور : ٣٤) ، وقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِه وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم من دُونِ الله ﴾ (يونس : ٣٨) .

(٣) يشير إلى قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللهِ هُوَ أَهْدَىٰ منْهُمَا أَتَّبِعْهُ إن كُنتُمْ صَادقينَ ﴾ (القصص : ٤٩) .

(٤) غافر : ٢٨

(٥) آل عمران : ١٩٠ - والصواب : الإشارة إلى الآية ١٦٤ من سورة البقرة ، فهى التى تطابق ما ذكره الكاتب .

وأحد الأمثلة النموذجية على هذه المحاكمات نجده فى دحض ناموس التثليث المسيحى . فالقرآن يرفض هذا الناموس استناداً إلى ما كان محمد يعتقد أنه التاريخ (١) ، وإلى ما يُنسب للمسيح ذاته من قول ينفى به عن نفسه صفة الأُلوهية . وليس هذا فحسب ، بل إن المسيحيين مدعوون إلى أن « لا يَغْلُوا » فى دينهم فلا يقولوا بما لا يُعقل . ﴿ إِنَّمَا اللهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ، سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِى السَّمٰوات وَمَا فِى الأَرْض ، وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ (٢) . و﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِه الرُّسُلُ ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ (٣) ، ولكنهما كانا بَشَراً كالآخرين : ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ (٤) . ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَم وَأُمَّهُ وَمَن فِى الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ (٥) . ولذلك : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَم وَرُوحٌ مِّنْهُ ، فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ، انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ ﴾ (٦) .

يقول المؤلف : وفعل « عَقَلَ » (بمعنى : ربط الأفكار بعضها ببعض ، حاكم ، فهم البرهان العقلى) يتكرر فى القرآن حوالى خمسين مرة . ويتكرر ثلاث عشرة مرة هذا السؤال الاستنكارى ، وكأنه لازمة : « أفلَا تعقلون » ؟ والكفار ، أُولئك الذين يرفضون الاستماع إلى دعوة محمد ، يوصفون بأنهم « قوم لا يعقلون » لأنهم قاصرون عن أى جهد عقلى يهز تقاليدهم الموروثة (٧) . وهم

---

(١) ينطلق الكاتب من فكرة مسلَّمة عنده وعند كل المستشرقين ، وهى بَشرية القرآن ، وأن محمداً مؤلِّفه ؛ وكل الدلائل تُكذِّب هذه الفكرة الزائفة ، وليس هنا موضع مناقشتها .

(٢) النساء : ١٧١ (٣) المائدة : ٧٥ (٤) المائدة : ٧٥

(٥) المائدة : ١٧ (٦) النساء : ١٧١

(٧) ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ، أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ، أَفَأَنتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (يونس : ٤٢ ، ٤٣) .

OBEIKAN.COM

بهذا كالعجماوات والأنعام ، بل أكثر عجمة [1] . ولذلك كان الأب « هنرى لامنس » على حق فى قوله : إن محمداً « ليس بعيداً عن اعتبار الكفر عاهة من عاهات الفكر البَشَرى » !

فالكفار - ككل المحافظين فى كل العصور - يقولون إنه يكفيهم أن يتبعوا ما كان عليه آباؤهم ، ومحمد - ككل المجددين - تستثيره هذه الحماقة : أفلا يدركون أن آباءهم قد أهملوا فكرهم قبل أن يضعوا قواعد حياتهم ؟ [2] ولذلك يكره الله هؤلاء الناس الذين لا يريدون أن يعيدوا النظر فى أُسس تفكيرهم [3] . ولئن كان يرسل الآيات على وجوده وإرادته ، وأهمُّها الآيات المنزَّلة على نبيه محمد ، فلكى يفهمها الناس ويجعلوا منها أساساً لتفكيرهم [4] . ونرى الله يُقدِّم البيِّنة الفاصلة ، ثم يختتم البرهان بقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [5] ، ولما كان الإنسان حراً فأقصى ما يَسع الله فعله هو أن يضع أمامهم هذه الآيات ، هذه البيِّنات التى ستكون حاسمة قاطعة بمجرد أن يعملوا حواسهم ومَلَكة المحاكمة فيهم . فإن فعلوا

---

(١) ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة : ١٧١) ، ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ (الفرقان : ٤٣ ، ٤٤) .

(٢) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُواْ مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة : ١٧٠) .

(٣) ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (الأنفال : ٢٢) .

(٤) ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل : ٦٩) ، ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ * وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (العنكبوت : ٣٤ ، ٣٥) ، ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (يوسف : ٢) ، ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الزخرف : ٣) .

(٥) الروم : ٢٨

فلعلّها تهديهم إلى الإيمان [١] . فإن اهتدوا كانوا « عالمين » [٢] ، وكان لهم نصيبٌ مما جاء الرسول من العلم [٣] ، هذا العلم الذى هو نقيض الجاهلية والجهل ، جهل الإنسان البدائى قبل الوحى [٤] ، الذى يأتى بالحق والصدق [٥] . وأما مَن ظَلَّ على كفره فهو الجاهل بإرادته ، ذلك الذى ﴿ يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ [٦] ولأمثال هذا يجب أن يُقال : ﴿ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [٧] .

على أن الفهم العقلى للحقيقة لا يكفى وحده ، فيهود المدينة مثلاً كانوا

---

(١) ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُواْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَالَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ .
(الحديد : ١٦)

(٢) ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (العنكبوت : ٤٣) .

(٣) ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَىٰ ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (البقرة : ١٢٠) ، ﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ .
(آل عمران : ٦٠ ، ٦١)

(٤) ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة : ٥٠) ، ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى الْجَاهِلِينَ ﴾ (القصص : ٥٥) ، ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ .
(الزمر : ٦٤)

(٥) ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ (الزمر : ٢) ، ﴿ وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (الزمر : ٣٣) .

(٦) لقمان : ٢٠ (٧) الأنعام : ١٤٨

يفهمون الدعوة كل الفهم ، ولكنهم كانوا لا يلبثون أن يحرفوها عامدين [١] . وكذلك ينبغى الانتقال من العقل المحْض إلى العقل العملى ، وإدراك أن الخير والمصلحة هما فى اتباع ما أمر به الله ، والالتحام بالجماعة التى يبنيها رسوله بأمرٍ منه » [٢] .

وينقل « رودنسون » عن دراسة لـ « شارل توراى » عن مصطلحات اللاهوت فى القرآن قوله : « من الصعب أن يتصور المرء لاهوتاً أكثر « دقة رياضية » ، ودقة الرياضيات تفترض العقلانية ، وهذا بالطبع لا يعنى أن كل الأشياء ، فى هدى العقيدة القرآنية ، تُدرك بالعقل ، فكثيرٌ منها لا يبلغه العقل ، وهذه بالذات آية من آيات الله على قدرته وعلى إحاطة علمه ، وهذه الأشياء التى لا قِبَلَ للعقل البَشرى أن يدركها بقوته وحدها ، يكشف الله للناس عن بعضٍ منها بواسطة أنبيائه ، أما باقيها فيظل إلى الأبد فى عالَم الغيب ، ومهمة العقل هى أن يفهم صدق ما تقوله رسالات الرُسل عن المجهول الذى لا طاقة له على معرفته ، وأن يدرك أيضاً أن مصلحته هى فى إطاعة تعاليمهم .

وهنا - بالطبع - يظهر الإيمان ، هذا العنصر اللاعقلانى ، والضرورى مع ذلك لكل دين ، وربما لكل عقيدة غير دينية . فأنت واجد أناساً يبدون متماثلين فى المواهب ، متماثلين فى الظروف ، ثم يقفون أمام ظاهرة واحدة فتكون لهم مواقف مختلفة . بعضهم يؤيد ، وبعضهم ينكر . بعضهم يؤيد بجماع قلبه ، وبعضهم بطرف لسانه . ولا معدى لنا عن تفسير لهذا الاختلاف ، فإذا نحن كافحنا غير المؤمنين فلا بد لنا ، كيما ندينهم ونتوعدهم

---

(١) ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ٧٥) .

(٢) انظر : كتاب « الإسلام والرأسمالية » - فصل « العقيدة القرآنية » ص ١٣٤ - ١٣٨ من الترجمة العربية .

بالعقاب ، من أن نعترف لهم ببعض المسؤولية فى رفض الإيمان . وهذا - فى الأديان - يصطدم بناموس القوة الإلهية المطلقة ، ويضع المرء أمام معضلة لا حلَّ لها ، هى معضلة الخيار بين اتهام السماء بالعجز النسبى وبين اتهامها بالظلم .

أما فكرة الإيمان فى القرآن فتقف عند الاعتصام العنيد ، عبر فعل إرادى يأخذ بجماع النفس ، بهذا الإيمان الذى منحه الله مجاناً لعباده .

ولكن الإيمان يظل على صلة مباشرة بالاقتناع العقلى ، وآية ذلك أن كافرين ظلوا دهراً طويلاً على كفرهم ، فأنزل الله عليهم من آياته مصائب حاقت بهم ، فكفروا بإشراكهم الماضى وقال الله إنهم أصبحوا مؤمنين ، ثم أضاف أنهم آمنوا بعد فوات الأوان فلن ينجيهم إيمانهم من العذاب (١) . إن الآيات التى تروى ذلك تحمل الدليل على أن هنالك تماثلاً بين الإيمان وبين الاقتناع « العقلانى » أمام البيِّنة . وما يفعله الله هو الإذنُ للبينة الموضوعية بأن تحدث أثرها المقنع (٢) . وجدير بالتأمل أن نفس الآية التى تبرر التسامح ، وتشير إلى هذه المشيئة الربَّانية ، تتحدث فى الوقت نفسه عن العقل والاقتناع العقلانى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِى الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ، أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) ، (٤) .

---

(١) ﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُواْ آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ، سُنَّتَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ ، وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ (غافر : ٨٤ - ٨٥) ، ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ، يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْراً ، قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ (الأنعام : ١٥٨) .

(٢) ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إلا أَن يَشَاءَ اللهُ ﴾ (التكوير : ٢٧ - ٢٩) .

(٣) يونس : ٩٩ - ١٠٠ (٤) الإسلام والرأسمالية ص ١٣٩ ، ١٤٠

OBEIKAN.COM

وبعد حديث طويل عن العهدين القديم والجديد ، وموقف الآباء والأحبار من العلاقة بين الإيمان والعقل ، ينقل عن القديس الشهير « توما الأكوينى » فى القرن الثالث عشر الميلادى قوله : « إن صفات الله غير المرئية يحيط بها الإيمان بطريقة لا يستطيعها العقل الطبيعى حين يرقى من المخلوقات إلى الخالق » ، « مثلاً إذا رفض المرء - أو لم يرد حقاً - أن يؤمن إلا بواسطة العقل الإنسانى ، فإن إدخال العقل يحط من قدر الإيمان » !

ويعقب « رودنسون » على ذلك بقوله : « فى مقابل هذا ، تبدو العقلانية القرآنية صلبة كأنها الصخر » ! (١) .

* * *

(١) ص ١٥٠ من الترجمة العربية للكتاب .